المضمون الايديولوجي للخطاب الأدبي في الابتدائـــي .

أباعقيل العربي

---

1) يجب أولا ان نتوقف بعض الشيء لتحديد المفاهيم التي أتت في عنوان هذا العـرض :

1 ـ الخطـاب الادبـي :

المقصود هنا ، النصوص التي تكون محتوى كتب القراءة بالابتدائـي المغربي وعلى وجه الخصوص كتب القراءة في المتوسط الثاني . وفي هذا الصدد سوف لا نتطرق الا للكتب المكتوبة باللغة العربية .

2 ـ لماذا بالذات كتب القراءة كخطاب أدبي معبر عن الخطاب المدرسي ؟

أ ـ لان جميع العمليات التربوية تنطلق من هذا الخطاب : المفردات ، التراكيب ، الملخص ، الانشاء ، وفي بعض الحالات حتى النحو والمحفوظات .

ب ـ لانه خطاب رسمي ومعمم

ج ـ لان واضعيه (المؤلفون) متفقون على الهدف المرجو منه .

اتاحة الفرصة للطفل ـ التلميذ للتعرف على بيئته ، واعطائه سلوكا طيبا ومستقيما وتكوين شخصيته الفتية وبالتالي دمجه في المجتمـع (انظـر افتتاحيات بعض هذه الكتب) .

اذن فالهدف المعلن عنه هو التنشئة والتطبيع .

د ـ وضع التلميذ المغربي بالمتوسط الثاني :

ـ ضرورة النجاح في الامتحان لولوج أقسام الثانوي ،

ـ ظاهرة الضياع المدرسي التي تأخذ حجما مخيفا في هذا المستوى.

ـ وكنتيجة لهذه الظاهرة ، ضرورة التنشئة تبقى ماسة وفي وقت وجيز وقبل « مغادرة » المدرسة للشارع . واذن قد يهمنا كثيرا معرفة معالم هذه التنشئة ، وهنا نصل الى مفهوم المضمون .

3 ـ يقصد من المضمون ، هنا ، المعنى الذي يحتوي عليه الموضوع .

فالوحدة التحليلية التي روعيت في هذا البحث ، وبصدد هـذه الكتـب

المذكورة هي الموضوع : موضوع النص ، موضوع الفقرة من النص ، موضوع الجملة الخ .. ولا ننطرق هنا لمعنى الكلمات أو لشكل من اشكال الاسلوب .

على اي فان هذه المسالة لها علاقة بالمنهج وقد نعطي معلومات ضافية حول هذه المسالة ، اذا طلبت ، في المناقشة .

4 ـ الايـديـولـوجيـا :

يحدد هذا المفهوم

ـ كنسق نظري حيث للأفكار أصلها في الواقع (المادي) كما هو الحال دائما بالنسبـة للأفكـار .

ولكن النسق النظري الذي يطرح ، بالعكس ، وكان الافكار لها استقلال ذاتي ، يكون بالتالي تصورا وهميا في نفس الوقت عن الشيء الذي يتطرق اليه وعن نفسه هو . ويلعب هذا التصور الوهمـي دورا لطمـس الحقائـق وبطريقة ، في اغلب الاحيان ، لا شعورية حيث « الايديولوجي » هو نفسـه مخدوع اذ يظن أن الافكار لها استقلال ذاتي . والافكار التي تفصل عن علائقها بالواقع تخدم بناء نسق نظري همه هو طمس وتبرير السيطرة الطبقية .

فايديولوجي ليس معناه خاطيء ، الايديولوجيا تسوق كذلـك افكـارا صحيحة ، ولكن المنهجة Systématisation ، وبغض النظر عن الواقع الذي يعكس هذه الافكار ، هي التي تكون ايديولوجيا بالمفهوم السابق الذكر .

لنأخذ مثالا في التربية (ما دام الموضوع يدور في هذا المجال) : التحرك الايديولوجي للتربية يرتكز على سياق مثلث :

ا ـ يحول الوقائع الاقتصادية ، الاجتماعيـة ، السياسيـة المرتبطـة بالتربية الى مشكل ثقافة فرديـة .

ب ـ يحلل الظواهر الاجتماعية ارتكازا على المؤهلات الفردية كذلـك (انظر النصوص الواردة في كتب القراءة المشار اليها) .

ج ـ القول بمسلمة ـ بصفة ضمنية أو واضحة ـ وهي مرد المجتمعي Sociologique الى الفردي l'individuel وأما ما ينتج عن هذا التصور الايديولوجي فهو أن البنيات الاجتماعية والصراعات الاجتماعية لا واقع لهـا في حد ذاتها وما هي الا عواقب النشاطات الفردية ، ولا وجود ـ بالتالي ـ الا للفرد الذي هو السبب الاول والاخير لكل واقع اجتماعي .

وللتاثير في المجتمع يجب اذن التاثير في سببه أي الفرد ، وهذا الفرد يكـون مسؤولا :

ا ـ على مصيـره .

ب ـ على تنظيم المجتمع ، وبالتالي للفرد الشبقي اجتماعيا ، يجب أن لا يلـوم الا نفسـه .

2) الفوضية التي انطلق منها البحث :

ما دمنا في اطار التنشئة المدرسية (كتب القراءة واهدافها لتكييف سلوك التلاميذ ...) فلا بد من الوقوف عند التعريف الرسمي للتربية .

في التصميم الخماسي 1977 ـ 1973 ، مجلد 2 ، ص. 689 ، نجد أن التربية قد عرفت **بالتعليم** الذي يضمن ـ كما تقول الوثيقة المشار اليها ـ شروط التقدم الاجتماعي ، ويساهم في ترقية الطبقات الغير المحظوظة .

وبعبارة أخرى ، المشكل التربوي كله يكمن في تبليغ المعلومات التي يعهد لها ان تهيء التلاميذ الى الاحراز على شغل .

نسجل هنا السكوت عن الاشكال المتعددة التي قد ترمي اليها التربية ، وابراز فقط الصفة المتحدة الاتجاه . ولكن من وراء هذه النظرة الا يتم طمس لواقع التربية (في شكلها الرسمي : التعليم) ، اي مثلا ، اعادة انتاج الفوارق الاجتماعية ؟

اليست التربية ، وكيفما كان شكلها حث لاحترام قيم ، أو على الاقل توجيه افعال وسلوك المربي (بتشديد الباء وفتحها) حسب بعض القيم ؟

فالثقافة كمضمون للتربية ، اليست الاخلاق ، والدين ، والميتافيزيقا ، والقانون ، والسياسة والافكار والتصورات وكذلك الوعي الذي يتوفر للبشر على الاشياء وعلى المجتمع .

وحتى اللغة التي توظف في ترسيخ كل انتاج فكري في الذهن وفي سلوك الذات التي ينتظر تطبيعها ؟

وانطلاقا من تعريف للتربية كفعل مقصود ومؤسسي منتج لتغيير في السلوك ، نريد أن نقف على المواضيع المحدودة (أي القيم التي يجب أن نخضع لها ، أي التصورات) والتي ترتكز عليها المدرسة ـ انطلاقا من الخطاب المدرسي ـ في تطبيعها للأفراد .

بالطبع ، نفترض ان هناك تصورات سائدة وأخرى قد تطمس حسب ما قلناه في تحديد مفهوم الايديولوجيا .

قبل اعطاء فكرة على ما تأتي به النصوص التي تحتوي عليها كتب القراءة ، من المفيد أن نشير هنا (على سبيل المثال) الى بعض الملاحظات والخاصيات التي يتميز بها هذا الخطاب .

1 ـ فكرة الواقع المقلوب هي الميزة التي يختص بها الخطاب بالنسبة للواقع الحقيقي ، مثلا عوض الطبقات الاجتماعية نغرق في مفاهيم مثل «الفقير» « الغني » ، « المسكين » .. الخ ..

2 ـ وعدم « **وجود** » الاطفال (على عكس كتب القراءة بالفرنسية » و « **غزارة** » الأباء (بالمفهوم الاجتماعي ، وخصوصا أباء الماضي)

هنا تتم التنشئة بأنماط من الشيوخ (العقلاء ، الراشدون) أي ان الرجل العاقل (طبقته) هو الذي « **يحمل** » بعض الانماط السلوكية ـ الخلقية وبالتالي هو أساسا من « شخصيات » الماضي .

وعدم وجود الاطفال يعني عدم الاستفادة من علم النفس ، حيث الاطفال ـ التلاميذ قد يتقمصون شخصية الاطفال ـ الاشخاص الواردة في النصوص .

3 ـ **منزلة الفعل** :

تتميز أغلبية النصوص بالصيغة الاسلوبية والتي هي صيغة مبنية للمجهول وصيغة مبهمة .

وهذه الطريقة تبلور الهروب من ربط الفعل بالفاعل ، وحينما يتكلم نص واحد بصيغة غير مجهولة عن فعل يؤدي الى نتيجة مباشرة يحصل فرق في التصور حيث لا تتم الاشارة الى شخص مغربي أو عربي (ويمكن للطفل ان يراه قريبا منه) ولكن لأجنبي : « كان شاب فرنسي » (أنظر نص : « **المغامرة** ») .

4 ـ التركيز على شخصيات الماضي .

5 ـ طابع النصوص الاخلاقي مبالغ فيه ، بحيث يرتكز الى حد ما على خلاصات أخلاقية لتنشئة الطفل .

6 ـ طبيعة العلاقات بين الاشخاص (الاب، الام، الاخوة ...) الخ .

3 ـ بعض النصوص ومضمونها الايديولوجي

1 ـ اذا افترضنا أن الخطاب المدرسي لا يخلو بصفة مباشرة أو غير مباشرة من مفهوم **الشغل** ، فما هو يا ترى نصيبه في كتب القراءة للمتوسط الثاني ؟ 14 ٪ من النصوص هي التي تتكلم عن الشغل !

هذه هي الملاحظة الاولى ، أما الملاحظة الثانية فهي أن في « كلام » النصوص عن الشغل ليست ولو اشارة واحدة للضغوط التي تصاحب أي شغل (ضغط أرباب العمل .. الخ .) هناك نص واحد والذي يتكلم عن رجال المطافيء هو الذي يتكلم عن مخاطر هذه المهنة ولكن المقصود من هذه الاشارة هو فقط لتسجيل الفكرة التالية : رجال المطافيء يضحون من أجل الآخرين ، فالشغل ، فرغ من معناه لفائدة نوع من الصراع على شكل ايثار !

أما النصوص الاخرى فلا تشير لاي ضغط كيفما كان نوعه .. والذي يفسر التصور الذي تناول به المؤلفون هذه المسالة هو تسجيل **الشغل كفعل أخلاقي** .

(أنظر ، مثلا ، « الطبيب والانسانية » وعدم تناول الاول أجرته على الخدمات التي يؤديها وهو في مصحته الخاصة !)

أو كذلك ادراك **الشغل** كفعل ايستتيكي مثل الفلاح (نص « الحرث »)

الذي لا تسجل الا حركاته وكانها ايقاعات وحركات فنية لا كمشقة ، وتعب وعنـاء ! ..

وخلاصة القول ، ان « الشغل » يقدم الى التلاميذ في مظهـر وصفـي والمطلوب هو حس الشم أو النظر أو السمع أو اللمس ... ولكن طابع العناء والاستغلال يبقى مقنعا . وهكذا يقدم العامل في قطيعة تامة عـن مشاكـل وصعوبات الحياة ـ حياته الواقعية. والتلاميذ يتلقون هذه المشاهد حيث الكل ثابت ولا يسود الا الايثار والانسجـام .

النتيجة هي اعطاء التلاميذ عالما متجردا من جميع الصعوبات الاجتماعية الملموسة . وهكذا نقرأ ان السعادة قد تكمن في الفقر !! ..

2 ـ ففي نص « النجاح والفشل » ، مرة أخرى لم يشر لا الى الشغـل والعمل وتكافؤ الفرص أو عدم تكافؤها ، الصراعات الطبقية في سير الحديث عن الفشل والنجاح ! ولكن أتى الخطاب بـ « الثقة بالنفس » و « الارادة » وفكرة حتمية « طبقية » تكاد تبوح عن نفسها .

فكل شيء قد يزيل الستار عن الواقع قد ترك جانبا من طرف اصحـاب النصوص وكما يقول النص المذكور بأن الاسباب في الافراد لا في المجتمع .

فالشيء الذي يقدم للتلاميذ ليس الواقع الملموس ولكن خطاب مدرسي ميتافيزيقي وديماغوجـي .

3 ـ وفي نص « التعاون » شبهت الاسرة والمجتمع ثـم المجتمعـات بالجسم الانساني : كل طرف (عضو) في خدمة الكل ! .. فنفس النمط ونفس التصور الذي سبق من قبل يطبق الآن على المجتمع والمجتمعات الاخرى ..

فاذا وجد خلل فلأن الفرد ـ العضو لم يقم بواجبه ، وبالتالـي فهـو المسؤول اذا لم يحصل التكامل ! تصور آخر ، هذا، يطمس لا محالة الفوارق الاجتماعية وسيطرة بعض الطبقات .

4 ـ اما في نص « الحرية » لم تحدد هذه الحرية : أي نوع من الحرية؟ وحرية من ؟ وبالنسبة لماذا ؟ كل ما هناك هو الاشارة بغموض الى أنها هي « السعادة » ؟ ! فبالتالي ما السعادة ؟ يقول النص : حينما لا توجد ضغوط لا على الجسد ولا على الفكر ! ما هي الضغوط ، وما طبيعتهـا ؟ .. النص لا يلفـظ بشيء ..

وفي الاخير يبوح النص بانها هي « الاحساس بالحرية » (نفسانيا) ، وهي تلك « الشمس التي قد تسطع في قلب الانسان » ... فهي اذن فينا ، وعلى كل واحد أن يجدها في نفسه وبالتالي ليست في الواقع وشروط الواقع ! ..

بصفة عامة وبدون المزيد من الامثلة فان نفس التصور الميتافيزيقي هو الذي يستمر في طغيانه على الواقع الملموس .

وفي الاخير نريد الاشارة الى أن تحليل النصوص تم من خلال مقولات عدة ، وعلى سبيل المثال :

1 ـ الاشخـاص
ـ أ ـ منزلة الاشخاص في النص
ـ ب ـ الاشخاص والعصـر
ـ ج ـ العلاقات الاسرويـة ، الخ ...

2 ـ المضامين الاخلاقيـة

3 ـ نظرة النصوص الى بعض المفاهيم الاساسية
ـ أ ـ الشغـل
ـ ب ـ الفعـل
ـ ج ـ المجموعة ، الفرد ، الطبقة ، الخ ..

وعلى أي فان النقاش سيرجعنا لا محالـة الـى بعـض القضـايـا المنهجية وكذلك بعض الخلاصات الاخـرى .

● قدم هذا العرض ضمن الندوة الخاصة بالخطاب الادبي التي هيأتها المدرسة العليا للأساتذة بالـربـاط (1978) .

صدر عن دار العودة ببيروت :

« ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب »

مقـاربـة بنيـويـة تكـويـنـيـة

محمـد بنيس

مساهمة في قراءة المتن الشعـري المعاصـر بالمغـرب ، بوعـي نقـدي ، يبتعـد عـن الاجتـرار والانبهـار .